خطاب الهوية الوطنية في الشعر الجزائري الحديث"من جغرافيا الذات إلى جغرافيا المكان

The discourse of national identity in modern Algerian poetry "from the geography of the self to the geography of the place

محمّد الصالح خرفي*
[1]جامعة محمّد الصديق بن يحي- جيجل(الجزائر)

الملخص:

يعالج المقال خطاب الهوية الوطنية في الشعر الجزائري الحديث من خلال المكان الجزائري خاصة عند الشعراء الذين عاشوا إرهاصات الثورة ، و الثورة نفسها، وفرحة الاستقلال ، إذ حضرت أمكنة جغرافية كثيرة في المتن الشعري الجزائري الثوري تعبر عن الهوية الوطنية والذات الجزائرية (الجبل، الأوراس ، السجن ، الصحراء، القرية ، البحر...) بصور مختلفة تفاوتت من شاعر إلى آخر، نحاول أن نبرز بعضا منها هنا .

الكلمات المفتاحية:الخطاب، الهوية، الشعر، الثورة، المكان.

Abstract:

The article deals with the discourse of national identity in modern Algerian poetry through the Algerian place, especially for poets who lived the harbingers of the revolution, the revolution itself, and the joy of independence, as there were many geographical places in the body of revolutionary Algerian poetry expressing the national identity and the Algerian self (mountain, Oras, prison, desert, village, sea...) With different images that varied from one poet to another, we try to highlight some of them here.

Key words : discourse, identity, poetry, Revolution, Place.

*محمّد الصالح خرفي.

مقدمة:

كان الطلل قديما يعبر عن الهوية والفقد، ومع إعراض الشعراء عن الأطلال، برزت أمكنة أخرى تبرز الهوية،تشبث بها الشعراء، لأنها أماكن بديلة، وتجلى ذلك في شعر الوطن، الذي لم يكن موجودا بهذا المفهوم من ذي قبل، حيث أضحى المكان مفردا بصيغة الجمع، وأصبح هو الذي يهيج الأشواق لما فيه من ذكريات و دلائل عن الذات ، فكثُر عند الشعراء ذكر الأوطان ؛ لأن الوطن هو الهوية و الانتماء و القضية ،و كلما تعلق وارتبط به الشاعر، كلما تحققت إنسانيته و كَمُلت مثله العليا لأنه " المكان الأول الذي يتجذر في الذات الإنسانية ، هو البؤرة المركزية التي تستقطب تفاصيل الحياة الشاملة و النواة الخفية التي تتمحور حولها التجربة الشعرية "[1] و قد امتزج ذكر الوطن بالحديث عما يعانيه من ظلم و تعسف و استدمار وفقد وضياع، كما ارتبط ذكره بالدعوة إلى النهوض لتخليصه من كل القيود ، لأن الشاعر آمن به خلاصا وأضحى حبه عنده شريعة ، فهذا الارتباط بالوطن حاجة حميمية ، فقد ينقطع عنه أو يتغرب في أمكنة بعيدة عنه لكنه يحمله بداخله .

وتزداد حاجته إليه كلما تعمق إحساسه بضياعه،ولا يجد العزاء إلا في ذكره ،و يمكن عد شعر الأطلال- بصورة أو بأخرى-حنينا إلى الديار مشوبا بالذكريات و الحب و التوق إلى الحبيبة و الأيام الخالية،ف " الوطن فكرة غافية لا يوقظها سوى الشعراء بالتحنان و الغناء ، و إذا كان الانسان يرتبط شعوريا بالمكان الذي ينبت فيه و تمتد فيه جذوره فإن توسيع دائرته ليشمل رقعة عريضة تتمثل فيها خواصه الطبيعية و البشرية و تعميق وعيه الفطري به يعد نموذجا لصناعة المثال و التعلق به ،و هي صناعة شعرية في صميمها حيث بوسع الانسان عند ممارستها أن يرى ذاته و ينشد أحلامه و يشكل انتماءه للعالم الصغير وهو لا يفعل كل ذلك إلا إذا تلبس بحالة شعرية كأن يصبو إلى مرابع لهوه و طفولته أو يتوجع بتذكر ماضيه و معالمه . و(هم) في كل ذلك ينشدون توليد صورة مثالية للوطن بالتوافق معه أو الخلاف فيه ، وهي التي تحفز قسماته في ذاكرة الأجيال. "[2]

وقد كان الشعراء أكثر تشبثا بالوطن من أبناء الوطن الآخرين و أملا في المستقبل من غيرهم لأنهم تجردوا من الأهواء و المنافع و المطامع ، فكانوا صادقين مع أنفسهم و مع شعوبهم و تركوا قصائد تنمو حبا وارتباطا بالوطن لكننا قد نجد التميز و التفرد في التعامل مع الوطن مع الشعراء الإسلاميين الذين لم يرتبط الوطن عندهم بالشعارات و لا بالحدود الإقليمية ؛ فالوطن عندهم يستمد جوهر وجوده من الإسلام و يرتبط به في كل الحالات و الظروف ، و هو الخيط الرابط بين النص الشعري و الشاعر و الوطن ، ف " قصيدة الوطن قد نجحت على أيدي الشعراء الإسلاميين المعاصرين في التعبير عن هم الانسان المسلم الذي يرجو أن يشكل مطامعهو أحلامه وفق الإسلام و وفق وطن عزيز كما أنها خرجت بالوطن من تلك التعابير الرومانسية الحالمة التي شهدها الشعر العربي المعاصر لفترة طويلة من الوقت ، و التي

حولت الوطن إلى موضوع للغناء و الطرب و أوقفت الإنسان المسلم على حقيقة مدهشة وهي أن الوطن الجغرافي لا خير فيه إذا لم يعانقه وطن روحي، و لذا نرى الشعراء و هم يقفون ضد هذه الأقاليم الممزقة بصراحة عارية تماما و بتحد واضح . و في الوقت نفسه يطمحون إلى وطن إسلامي كبير و قد ألحت عليهم هذه القضية الحاحا كبيرا لأنها آخر الأمر قضيتهم الشخصية " [3] و قضية أمتهم و شعبهم المغلوب على أمره .

خطاب الهوية الوطنية في الشعر الجزائري الحديث:

برز خطاب الهوية الوطنية في الشعر الجزائري الحديث من خلال المكان الجزائري خاصة عند الشعراء الذين عاشوا إرهاصات الثورة ، و الثورة نفسها ، و فرحة الاستقلال، إذ حضرت أمكنة جغرافية كثيرة في المتن الشعري الجزائري الثوري تعبر عن الهوية الوطنية و الذات الجزائرية (الجبل، الأوراس ، السجن ، الصحراء، القرية ، البحر...) بصور مختلفة تفاوتت من شاعر إلى آخر ، بل حتى عند الشاعر نفسه ، و قد كان المكان الجغرافي صورة لجغرافية الذات و مدعاة لاستحضار الماضي و التأمل في الحاضر،رجع إليه الشاعر الجزائري وذلك من أجل التعبير عن الذات و المقارنة بين ما كان و ما هو كائن .فقسنطينة مثلا عند الشاعر صالح خبّاشة، مجد وحضارة ، لكنها أصبحت حزينة ، و جاهلة و فقيرة، تعاني من ويلات الاستدمار الفرنسي، وقد عاد الشاعر إليها ليقارن بين الماضي والحاضر ساردا تاريخها متحسرا على واقعها داعيا إيانا لأخذ العبرة :

تلك المدينةُ هلْ في الأرضِ مَبْنَاهَا و هلْ حَوَتْ كُتُب التاريخِ مَعْنَاهَا
مدينةٌ أَحْكَمَ الباني لها أُسُسًـا مُثْلَى و أتقنَ بعدَ الوضْعِ أعلاهَا
أنالها العُرْبُ حظًا كان مُسْتَـلَبًا و عِزَّةً عَبِقَتْ في الحيّ رَيَّاهَـا
فاستعْرَبَتْ و ترقَّت في مدارِكِـهَا الدينُ هذَّبَهَا والعــلمُ رَقَّاهَا
يا قومُ مالي أراهَا غيرَ ضاحكـةٍ و غيرَ ناشطةٍ و البِـشْرُ عَاداهَا
من ذا رَمَاهَا ومَنْ أبدى لها جُمَلا مُكَدَّرات و مَنْ بالسوءِ آذاهَا
نامتْ قسنطينةُ مِنْ بعد يَقْظَتِهَا بل أذنت برحيلٍ نحو أُخْرَاهَا
إنْ كُنتَ ذا فكرةٍ قارنْ بحاضِرها ما فاتَ من عهدِها أيامَ نُعْمَاهَا
تلقى دلائل لا تُحصي لها عددًا الجهلُ و الفقرُ أولاها وآداهَا [4]

فقسنطينة كانت و كان المجد و العلم لها أما اليوم – يوم الشاعر – فقد تغير حالها و ساءت أيامها، و بقيت الذكرى.وعلى خلاف الشاعر صالح خباشة كانت نظرة الشاعر مفدي زكريا إلى قسنطينة فهي رمز البهجة و طريق لعبادة الله ، لما تمثله من دلائل وجمال طبيعي خلاب . فالمكان الجغرافي واحد – قسنطينة-،لكن الذات التي تناولت

المكان مختلفة، فاختلفالتشكيلالفني، تبعا لاختلاف الظروف النفسية و السياقات التي كتب فيها النص وكذا الأهداف التي يتوخى الشاعر بلوغها من خلال ذكره له؛ فالشاعر مفدي زكريا منبهر بالجمال الطبيعي للمكان و هدفه الأسمى هو إبراز هذا التميز :

وادي الهوا!بالهوى، نشوانُ خاصرها و خاصرته، كأن الأمرَ مقصـــودُ
لدى خريرٍ من الأمواهِ ،تَحْسِـبُها لحنًا منَ الخُلْدِ،قدغَـنَّاهُ داوودُ! !
الكوثرُ العذبُ، يَحْكيها و يَحْسـدها وحوضُها الحلو، مثلُ "الحوضِ" مَوْرودُ
و نسمةٌ، مثلَ أنفاسِ الحسانِ سَـرَتْ لُطْفاً، يُراقصها في الروضِ أُمْلُـودُ
...و الليلُ،يكتمُ من أسراره عجـبًا يخشى الصَّبَاحَ،كأنَّ اللـيلَ بارودُ! !
نهرُ المجرةِ ،قد ضُمت كواكبـه كأنَّ أنجُمه الحَيْرى، عناقيـدُ
مناظرُ ،من صنيعِ اللهِ ،قد مُلئـت سحراً و شعراً ،بها الخلاقُ معبـودُ
وكلّ شيئ" بسرتا" اليوم مغتبط و كل شيئ " بسرتا" اليوم محسودُ[5]

فالشاعر مفدي زكريا على الرغم من حماسه الثوري ، اهتم بجمال المكان ، و جمع بين الذاتي و الموضوعي ، فجلال الأحداث لم يمنعه من الاهتمام بالوجه الآخر للمكان ، زيادة على أن قسنطينة تشكل معقلا من أهم المعاقل قبل الثورة.

كما ارتبط الشاعر الجزائري بالمكان الذي ولد فيه ،أي بذاته، لأن له وقع خاص في نفسه ، و يحمل ذكرياتهو ذاكرته فـ " الارتباط بالمكان حاجة حميمية لدى الانسان لا سيما عند الشعراء الذين يعيشون طفولة مستمرة في أعماقهم غنية بالحس و الخيال و الحلم ، بالأسرة و الحي و البيت ...حيث تتوالد الدلالات تجربة العمر كله وتتحد صورة بكرا أبدية بالنسبة إليهم حتى بعد انقطاعهم عن هذا المكان و اغترابهم في أمكنة بعيدة "[6]مثلما نجده عند الشاعر عبد الكريم العقون في قصيدته " ذكريات و عهود " التي كتبها بعد عودته إلى بلدة برج غدير (موطنه)- ولاية برج بوعريريج- إذ عاودته ذكريات الطفولة و أشجان البراءة قبل الرحيل منها؛ و بعد عودته عاد للطبيعة الجميلة و للأصل بعد أن أثقلته الهموم و كره من الضوضاء و حياة المدينة المثقلة ، فأحيا الطفولة فيه و أعاد الذكريات الجميلة و لو على المستوى الشعري :

قدْ عدتُ للنهرِ المجيبِ ظامئًا أطْفِى الزفيرْ
متسليًا بجمالهِ الأخاذِ أُنْصِتُ للخريرْ
أمْحو همومًا جمةً قد لازمتْ قلبي الكسيرْ

يا نهرُ عدتُ إليكَ أسبقُ فرحتي وقت المسيرْ

لنرى النسيمَ الحلوَ داعبَ وجْهَكَ الصافي النضيرْ

إني سئمتُ حياةَ أبناءِ المدائنِ و القصورْ

و هجرتُ ضوضاء تموتُ بها المشاعرُ و الضميرْ

فرجعْتُ أنتهبُ الخطى مُتَيَمِمًا بُرْجَ غديرْ

وقضيت يومًا جميلاً من مدى العمرِ القصيرْ

فوق المروجِ الخضرِ ما بينَ الحشائشِ و الزهورْ

أحيي عهوداً عذبةً قضيتها طفلاً غريرْ [7]

فالقصيدة ارتكزت على الجمال الطبيعي لبرج غدير؛ على النهر والزهور و المروج و الحشائش.. على العالم المناقض لعالم المدينة الصاخبة ، و المعادية لكل ما هو جميل.والقصيدة طويلة جاءت في شكل قصصي يشير فيها، إضافة إلى ما سبق ، إلى شدوه مع الأطيار وعبثه بالمياه و تظلله في الغابات و استمتاعه بآيات الجمال.فتحقيق الآمالا يكون إلا في برج غدير عند الشاعر عبد الكريم العقون،و مثله كان الشاعر الربيع بوشامة مع مدينة قنزات بسطيف، موطن الولادة الذي عاد إليه ليلاقي روح الوجود :

حبذَا العينُ في حُمَى قَنْــزَات موطنُ الآباءِ و الأمهات

و مرادُ الأحبابِ و الأهلِ جمعًا مِن أخٍ ذيِ القربِ ومنْ أخوات

يا هوا قنزات الكريمة سقيا بك من مؤنس لطيفِ المآتي

أنتِ روح الوجودِ إنْ طافَ همٌّ و غداء الإحساسِ و الملكات[8]

و القصيدة على ما فيها من هنات و سقطات – لها مبرراتها نظرا للمرحلة التاريخية – تبين ارتباط الشاعر الجزائري بمسقط رأسه و موطن الصبا و بذاته ،و وعيه بالمتناقضات الكبيرة بين البادية و المدينة، و هو وعي قد يكون منبعثا من نمط المعيشة في المدن المتسمة بالسمات الغربية.وهو شيء تحول مبكرا إلى المعارضة الخطرة بين المدينة/الآخر ، و البادية /الأنا.

كما قد تكون للشاعر الجزائري رؤيا مستقبلية يعبر عنها من خلال المكان ، أو يتنبأ من خلالها بما سيحدث للمكان القريب أو البعيد المحدد أو غير المحدد ، مثلما تنبأ الشاعر حسن بولحبال عند مناجاته للقمر بالصعود إليه ، فكان التساؤل الشعري ، هل يرضى القمر بأن يداس بأرجل أسافل الناس؟ :

أحقاً يا جمالَ الكونِ حقًا ستصبحُ بعدَ عِزك مستــرقَا

و تعلوكَ الأسافلُ مـن أناسٍ رأيتَ فعالهم غربًا و شرقـا
و ترضى أن تسيرَ على بساطٍ من الأنوارِ أرجلُهم و ترقى
أجل جبينك الدرّي عنـهم و أرغب أن تكونَ عليه اتقـى
عبدت على شبابك في دهور فهل ترضى بعهد الشيب رقًّا ؟ [9]

وهذا القمر إضافة إلى بعده الحقيقي له بعد مجازي ، فهو الجزائر التي تعرضت للاحتلال بعدما كانت عزيزة ، فوطأتها أقدام مدنسة بالعار و الجريمة ، فجعل الشاعر القمر معادلا لها دلالة على رفعتها وسموها. و من خلال هذه المقاربة المكانية بين مكانين مختلفين يحاول الشاعر الجزائري أن يصل الخيط بينه وبين القمر ، في حوار ذاتي ، مفتخرا بأن ما نقوم به لابد أن يسمع حتى في القمر لعظمة الحدثو جلال الخطب . فالشاعر و القمر صوت واحد، و رمز لجيل جديد يؤمن بالصراع لأجل الخلاص، و التضحية من أجل انتصار الثورة ، مثلما فعل الشاعر مُحَمَّد الصالح باوية:

كوةَ النّورِ .... أنا ذاك الولوعْ
رددّي لحنًا شرودًا في الضلوعْ
و اسكبي النورَ وفواحَ الطيوبْ
سوف لا أحكيٍ ، فقلْ لي .. ما مداكْ ؟
ما وراءَ الفُلْكِ، ماذا من حفيفْ ؟
أيّ أقدارٍ .. و أجيالٍ، هناكْ ؟
كمْ قرونٍ قد ذَوَتْ تحتَ سناكْ ؟[10]

فالتساؤل مشروع ، و مهمة الشاعر هي إثارة هذه التساؤلات و البحث عن إجابات لها ،و خطابه للقمر مؤسس على خلفية أن الجزائر برفعة القمر و لذلك فلا عجب أن يقسم– بصيغة الجمع- في أن يرى الجزائر حرة ، و يرى صباحها القريب :

قد قسَمْنَا و خطونَا لنراكْ
عانقينا و ادفعينا يا رياحْ
فعناقُ الموجِ قد شدَّ الشراعْ
واخبري الأقمارَ عنَّا والصباحْ
أننا جيلٌ جديدٌ .. للصراعْ.[11]

فجمال الكون بالنسبة للشاعر الجزائري متعدد الأوجه ؛ فإذا كان القمر قد أضحى من الرموز الشعرية التي ترتبط بالجمال الكوني ،عند معظم الشعراء العرب(خاصة الرومانسيين)فإن في الجزائر العديد من مظاهر الجمال الطبيعي.فالصحراء الجزائرية ،هي أيضا مظهر من مظاهر الجمال الكوني الرائع ،كل شيء فيها جميل في عيون الشاعر الأخضر السائحي،فهي الجمال البديع و السحر و الصفاء :

لستُ أدري أأنتِ أرض دحاك الله أم أنتِ يا رمالُ سماءْ؟

الجمالُ البديعُ والسحرُ والروعةُ والطهرُ والسنا والصفاءْ؟

.....

و هي في الليلِ كالنهارِ جَمَالٌ راحَ يُغري صَبَاحَهَا والمساءْ

فكأنَّ السكونَ فيها حَـرَاكٌ و كأنَّ السكونَ فيهاغِـنَاءْ

لتودّ النفوسُ لو تحتويهَـا وهي أفقٌ لا ينتَهِي و فَضَاءْ

ليسَ فيها مثلُ العبادِ نِفَـاقٌ و ليس فيها مثلُ العبادِ رِيَاءْ [12]

فالصحراء على رحابتها سماء أرضية ، تختصر الجمال و البهاء في الليل و النهار ، لا نفاق فيها و لارياء ، و بذلك فهي الملاذ الذي يلجأ إليه الشاعر من عالم البشر المليء بكل المتناقضات ، و تصبح الصحراء هي الأنيس البديل للذات و هي الهوية المتجذرة في الشاعر ، فالمكان يعوض الإنسان و يجعله يستمر أكثر.

ولا يختلف الشاعر مفدي زكريا عن الشاعر الأخضر السائحي، في وصفه للصحراء ، إذ استعرض مفدي جملة من المشاهد الصحراوية ، واصفا إياها من الخارج دون التفاعل معها أو مشاركة وجدانية، إذ سيطر الجانب المادي على الجانب الروحي ،و اكتفى بالاستعراض الوصفي فقط ، دون التغلغل أو الاندماج في المكان ، وإن كان المقطع قابلا لقراءة ثانية دالة على النظرة صوب المكان من الزاوية الجيوستراتجية التي كان الاستدمار يتخذها كنظرة أساسية، وهذا ما يبرر الرؤية الباردة بعض الشيئ صوب مكان دافئ مثل الصحراء :

وفي صحرائِنَا جنَّاتُ عَدْنٍ بها تنسابُ ثروتُنا انسـِيَابَا

وفي صحرائِنَا الكُبرى كنوزٌ نُطَارِدُ عن مواقِعهَا السَّحَابَا

وفي صحرائِنَا تِبْرٌ و تَمْرٌ كلاَ الذهبينِ : راق بها وطَـابَا

وفي واحاتِنا ظلٌ ظليـلٌ تفورُ به نواعرُها حُـبَابَا

وفوقَ سمائِنا قمرٌ منـيرٌ نطارِحُه الأحاديثَ العـِذَابا

وتحت خِيَامنا انحبستْ عيونٌ لها"هاروتُ"قدْ سَجَدَ احتِسابَا

يراقصُ رمْلَهَا الذهبيّ شمسًا تودّعه فيمْنَعُهَا الذَّهَـابَا[13]

وقد يرتفع الشاعر مفدي زكريا عن المكان المحدد جغرافيا – الصحراء – إلى المكان الواسع الحاضن للكلّ ، إلى الجزائر الجغرافيا و التاريخ و الهوية، ليرسم حقيقتها و صورتها ، و يجعل نصه الشعري كتابا يقرأ عبر الأجيال ، و صورتها ترتسم في ذاكرة كلّ جزائري محب :

إن الجزائرَ قطعةٌ قدســـــيةٌ في الكونِ لحنها الرّصاصُ و وقَّعَا!

و قصيدةٌ أزليةٌ، أبياتُـــــها حمراءُ، كان لها" نفمبرُ" مطلـعا!

نظمتْ قوافيها الجماجمُ في الوغى و سقى النّجيع رويَّها، فتدفَّعَـا

غنى بها حرّ الضميرِ، فأيقظـتْ شعبًا إلى التحريرِ شمّر مسرعـا

سمع الأصم رنينها، فعنا لهـــا و رأى بها الأعمى الطريقَ الأنصعا[14]

و ستبقى الجزائر ، تلهم الشعراء إلى أبد الآبدين لأنها ذاته، فالشاعر صالح خرفي كذلك سار مثل مفدي من الجزء إلى الكل ، فالأوراس أو الأطلس أو أي جبل (الونشريس ، جرجرة، الشريعة....)هي جزء من الجزائر بصيغها اللغوية المتعددة في النص الشعري(بلادي،و طني ، أرضي،جزائر) التي تواترت كثيرا في دواوينه الشعرية[15]،فهو قد أحبها مثلما أحب قيس ليلى، فكانت الجزائر محور القول الشعري عنده ،و الحب الذي ينبض قلبه به،و لن يتخلى عن حبها، حتى يوسد في الترب،فهي حبيبة العمر التي لن يرضى عنها بديلا :

حبيبةَ العمرِ ضُمّي بالوفاءِ يدِي و استنزلِي برفيفِ العينِ حُلْمَ غديِ

.....

حبيبتي هذه الدُّنيا بأجمــعِها شِبَاكُ سُوءٍ، فهاتي الكفَّ، نبتعدِ

نُغازلُ البَدْرَ في علياءِ بسْمَـتِهِ و نسْتَشِفُّ مآسي الأرضِ من بعدِ

و ننثر الزَّهرَ فوق الأرضِ نعمُرُها بقُبْلَةِ الحبِّ ،تحلُو،و صمةَ الكَمَدِ

.....

هَيَّا إلى روضةٍ تغْفُو مرابِعُـــها ما بين خفقةِ روحٍ، أو وفاءِ يدِ

جزائرُ الأملِ الزَّاهِي، فما اكتحلتْ عينُ الحبيبِ بأبهى من رُبَى بلدِي

كباقةٍ من بديعِ اللونِ، ما رفعتْ صلاةَ شُكْرٍ لغيرِ المبْدِعِ الصَّمَدِ [16]

فالشاعر الجزائري عاد إلىالمكان الجزائري و إلى الطبيعة رمز القداسة،في مختلف مظاهرها ،ليبرز هويته وذاته وإن لم يتفاعل معها في كل مرة ، وأوردها في متنه الشعري ليتم موضوعه و يستوفي معناه فقط، وقد يربط بين المنظر الطبيعي

المادي و الفكرة السياسية على غرار ما مرّ بطريقة غير مباشرة في وصف الصحراء عند مفدي زكريا، و هو الأمر الذي نجده عند الشاعر أحمد سحنون في مناجاته للبحر :

ماذا بنفسكَ من أَلَـــمْ يا أيّها البحرُ الخضمْ
نام الخلائقُ كلّهُـــم و بقيتَ وحدكَ لم تنمْ
و أرى العُبُوسَ على محيّا كَ الجليل قدِ ارتســمْ
يا بحرُ ما هذى الشكاة ألستَ تُوصف بالعظـمْ
أتضيقُ ذِرعا كابــنِ آدم بالوجودِ و ما انتظـمْ
أتضجُّ من عبثِ السياســةِ كم أبادَ و كم هَـدَمْ
أتضجُّ من شرفٍ يُداسُ و من حقوقٍ تُهْتَضَــمْ
أتضجُّ من حرٍ يُـهَانُ ومن وضيعٍ يُحْـتَرَمْ [17]

لكأني بهذا الخطاب موجه إلى الشاعر نفسه – أي خطاب الذات– الذي تمثل البحر إنسانا عاقلا واعيا ، بما يحيط به ، فكان محور نصه ، البحر المعروف باتساعه و عمقه و عدم مبالاته بما يحيط به و حفاظه على السر مهما سمع...ليكون عنده واعيا بما يجري من ظلم و تعسف و إهانة، و هذا دليل على كثرة المظالم وضياع الحقوق الماديةو المعنوية .

فعودة الشاعر أحمد سحنون إلى البحر في وقت مبكر (سنة 1937)،و استعماله كوسيط للتعبير دليل على إحاطته بالمخزون الشعري العربي الذي وظف موضوعة البحر، مع ربطه بالهم الوطني و الفكرة السياسية التي تلح على الشاعر دون رمز أو إيحاء فـ " البحر عند سحنون قصة حب كأنها الأسطورة، وصورة متألقة بمختلف الأبعاد ، كأنها الرمز الكلي المثال الذي ينشده الانسان في وجوده، ويتقفاه الشاعر في نصوصه ،مجسدا من خلال معرفة و خبرة بالمكان ،و نظرة عشق وإكبار للطبيعة كآية من آيات الإعجاز الإلهي في خلق الكون "[18]

فالبحر مثل القمر أو الصحراء أو أي مكان طبيعي آخر، مكان للإلهام و صورة واقعية ينشد من خلالها الشاعر الجزائري الحقيقة ، دون العودة إلى الحلم أو الخيال الذاتي ،و التفاعل الايجابي مع الموضوع .

لكن إذا وضعنا ذلك التراث الشعري في إطاره التاريخي و الاجتماعي–الذي لا يمكننا فصله عنه . فإننا نعذر الشاعر الجزائري على هذا التناول و هذه الرؤيا الشعرية التي ما فتئت تتغير مع ثورة نوفمبر التي أوجدت حركة شعرية مغايرة بنية و لغة و صورة ، شكلا أو مضمونا لأن " الشعر خروج من سكون اللاتاريخ إلى حركة التاريخ و هو بهذا المعنى فعل ثوري من الطراز الأول " [19]

وقد تجلت هذه الحركية في الثورة على الشكل التقليدي للقصيدة العربية ، إذ برزت قصيدة التفعيلة عند أبي القاسم سعد الله،و أبي القاسم خمار،ومُحَمَّد الصالح باوية ،و غيرهم من الشعراء مع بداية الثورة التحريرية ، فكانت الثورة على المستدمر الفرنسي مواكبة لثورة الشعراء على البنية العامة للقصيدة العربية...بفعل تغير المضامين الفكرية و السياسيةوالاجتماعية،مباشرة مع الثورة التي أنتجها الشعر الثوري،والذي في الوقت نفسه واكب الثورة التحررية ، بعدما أنتجت ثورة الشعر ثورة نوفمبر .

وقد تشكلت علاقة الشاعر الجزائري بالمكان الهوية ضمن سياق الوعي التاريخي الجديد ، فكانت الرؤيا مخالفة للسابق تمازج فيها الذاتي بالموضوعي دون الخضوع لسلطة المكان ،بل تطويع هذا المكان،لبناء الصورة الشعرية الجمالية. فارتباط الشاعر الجزائري بالتاريخ الوطني والأحداث المتتابعة،جعله يكون في محور الفعل الثوري لا على هامشه .

والصورة الجمالية عند جيل الثورة استمدت عناصرها من الصورة التاريخية ، و تحول المكان الجغرافي إلى عنصر هام في بناء النص الشعري الثوري الجزائري دال على الانتماء و على النضال،بل أصبح يشكل مركز النص من الناحية الفنية كما شكل مركز الثورة من الناحية المادية .

وقد كان الجبل هو المكان المركزي التاريخي الأول الذي تجذر في عمق رؤية الشاعر من جيل الثورة،فـ " الجبل رمز للثورة التي التحم بها الشاعر،و تقمصها تجربة كيانية عميقة، فأحالها إلى قضية شعرية شاملة،و بذلك يتأنسن المكان ليغدو جزءا من تاريخ الذاتفي معاناتها الإنسانية ،و قصة الإنسان بيمناه الثورة و بيسراه السلاح . " [20] و قد تناول شعراء الثورة موضوع الجبل من زوايا متعددة ؛ فهو عند الشاعر مُحَمَّد أبي القاسم خمار حلم يتوق لتحقيقه —و هو البعيد مكانيا عن الجزائر في سوريا– ليساهم في تحرير الوطن ، لأن بداية عودة الوطن المفقود ، المغتصب ، كانت من الجبال :

كيف السبيلُ إلى لقياكَ يا جبــلي و الدربُ قد ايقظتْ ألغامه قَدَمِي
لكنني سوفَ أمضي صاعدًا أبــدًا حتى ولو فوقَ أشلائِي وبين دَمِي
في ذروةٍ من ذُراكَ الخُضْرِ قد لَمَحَتْ عيناىَ مُنْطلَق الأمجادِ والشَّيَـمِ
فيضٌ من النورِ صوتٌ من مرابعِـنا يزلزلُ الأرضَ كالإعصارِ في صَمَمِ [21]

وإن كان الشاعر خمار لم يحدد اسم الجبل الدال على الهوية،و جعله مطلقا على كل جبال الجزائر الشامخة الصامدة التي ينتمي إليها، فإن الشاعر مُحَمَّد الصالح باوية قد حدد المكان و جعل من جبال الأوراس (مركز الثورة ، و انطلاقتها الأولى) همًّا شعريا و محورا للقول :

أنتَ أوراسُ أناملُ كيانِي

و أنا الإعصارُ في عيدِ الطُغاةِ

يا صرير الثارِ يَسْرِي في حنايا ضربتي نارًا تُنَاغِي

أمنياتي

أنا جبارٌ و رعدٌ و انفجارٌ .. أحملُ الفجرَ بأيدٍ

دامياتِ

وأحسُ الريح تعوي في ضلوعِي ، في دِمائي

في حقولِي ، في لهاتِي

و رِفاقِي كمنوا في ثنية الوادِي

و في السحبِ و في كوخِ الرُّعاةِ

و بَاتوا شُهَبًا تَروي أحاسيسَ الحياةِ [22]

لقد آمن الشاعر مُحَّد الصالح باوية بأرض الجزائر المعطاء في أشد الساعات حلكة ، و كانت الثورة أملا جديدا أعاد الحياة لقلبه و جعل هذه الأرض تلد الأبطال و الشهداء مجددا و كانت بداية القصة من الأوراس رمز الشموخ و الكبرياء الجزائري :

أنشديني ، أنشديني يا صديقهْ

قصةً مشحونةً بالموتِ ، بالنصر المدمّى

في الينابيع العميقهْ

قصةً بكرًا عنودًا

لم يعد يومًا بها سحر الأساطير العريقهْ

قصةُ الأوراسِ جُرْحِي

جُرحُنا الخلاّقُ ، يا صحْبِي و جودٌ و حقيقهْ

قصةُ العملاقِ، يمناهُ دماءٌ،

و بيسراهُ عصافيرٌ رقيقهْ

قصةُ الإنسانِ و الأرضِ الوريقَهْ . [23]

فالأوراس عند الشاعر مُحَمَّد الصالح باوية،أضحى رمزا لكل جبال الجزائر ،و عنوانا للنصر المرتقب ، و قصة قلما تتكرر في وطن آخر ،فهو خاصية جزائرية .و قد تواتر الجبل كثيرا في شعر مُحَمَّد الصالح باوية، فكأن الأوراس حياته ، و طريق الثورة، لأنه آمن بالجزائر شعبا و أرضا ، فإن مات هو،فأطفاله سوف يواصلون المسيرة من بعده :

إنْ أنا غبتُ طويلاً و صحَا طفلي و رائي خبّريه إنْ دعاني

خبّريه عني في الكهفِ في الساحةِ في الحقلِ في كلِّ مَـكان

هذه رشاشتي الصغرى لطفلي ، إنّها قصةُ قومِي و كَيانِـي

جَبَلِي يا جَبَلِي ، ها هي أشلائي ألغامٌ حواليكَ حَـوانِ [24]

و هو الشيء نفسه مع الشاعر صالح خرفي الذي حدد المكان الجغرافي للجبل ،و جعله في جبال الأوراس التي صنعت المجد بالنار حيث أفردها بحيز متميز في شعره عبر العديدمن دواوينه :

مجدُ البلادِ تُشيدُه أوراسُ و النارُ في نهج العُلا نبراسُ

و إذا تنكّر للمطالبِ غاصبٌ و نبا به يومَ التفاوضِ راسُ

حكم غرارُ السيفِ فيه فإنّما الرأسُ المكابرُ بالفرندِ يساسُ

.....

مَهْلاً فرنسا ما القساوةُ منكِ إلا ثورة لقلـوبِنا و حَمَـاسُ

.....

إنَّ الذي بالأمسِ صانكِ يا فـرنسَا و الليالي طعة و شماسُ

لهو المقدّر أن يكون اليومَ أمرَك في الحياةِ مصـيرُه أوراسُ [25]

فمجد البلاد من صنع الأوراس، وأوراس هو كل جبل جزائري منيع عصي على فرنسا،ولم تكن الثورة لتنتصر لولا تحصنها في الجبال ، فالانتصار كان منذ البدء لم يكن في قاعات الأمم المتحدة بل في المغاور و الجبال المنتشرة عبر كامل الجزائر. فالأوراس هو المنبر الوحيد والأوحد الذي تأتي من خلاله الحرية ، وهو عنوان كل جبل جزائري ، لأن الانطلاقة الأولى كانت منه:

من منبرِ الأوراسِ حيّ المجمعا فالضادُ و الرشاشُ قد نَطقَا معَا

فانظرْ هنا تجدِ البطولةَ منبرًا و ترَ البطولةَ في الجزائرِ مِدْفَعَا

لم ترو غلَّتنا المنابرُ فارتقيـ نا للخطابةِ أطلسًا مُتَمَنِّـعا

تلكَ الذُرا كمْ زمجرتْ برصاصِها فأرت لنا منهُ الخطيبَ المصقعَا

قممٌ موطأةُ المتونِ لثائـــر روى صَنَوْبَرَهَا دمًا فَـتَفَرَّعَا

فإذا امتطاها غاصبٌ مادتْ به و على جلامدها تلقَى المصرعَا[26]

ومن خصوصية الجبل الجزائري – عند الشاعر صالح خرفي – أنه يعرف الأجنبي الغاصبو الوطني الثائر ، فتختلف معاملته لكل واحد منهما ، فللأول الموت و للثاني الحياة .فالصخر أضحى رمزا، و جبال الأطلس تزاحم جبال الأوراس في الصمود و الشموخ ، و يغدو الأطلس مثل الأوراس، حكاية للأجيال ، يروي القصص و المآثر و يختصر التاريخ عند الشاعر مُحَمَّد الشبوكي :

أيها الصامد الأشـم هكذا المجدُ و الشمم

كم تحديتَ ها هـنَا من قرونٍ و من أُمَمْ

دوّخوا الأرضَ أدْهُرًا و تعالوا على القِـمم

ثم غابت شموسهـم و استحالوا إلى العدم

أنت يا أيها الـذي خبر الدهرَ من قدمْ

واعتلى الأفقَ شامخًا في صمود وفي عِظَم

أيها الأطلسُ الذي واكبَ العُرْبَ و العجم

هل علمتَ أجلَّ مِنْ آلِ عَدنانَ في الأُمَمْ

حدِّثِ الناس عنهمْ و اشرحِ النُبْلَ و الكَرَمْ [27]

فالأطلس أخو الأوراس ،في الماضي و الحاضر و منهما انبعث النصر بفضل الأحرار والرجال، و هما يختصران كل الحكايا ، و يختصران ما حدث في جزائر الثورة ، ومن جلال ما حدث في الأطلس ، ظن الشاعر صالح خرفي أن من الأطلس سيبعث الله رسولا جديدا :

لولاَ اختتامُ الوحي بالهادي ولو لا روضةٌ فيها أقامَ مُعَطَرَا

أقسمتُ أنَّ الأطلسَ الدامـي يخبئُ للبريةِ هاديًا و مُبَشّرَا

الله أكبُر جَلَّ من خلقَ الجِبَا لَ و شَقَّ فيها من دِمَانا أنْهُرَا [28]

لقد رسم الشاعر الجزائري صورة متميزة لجبال الأطلس و جبال الأوراس" تتجاوز إطارها المادي المحدود إلى ما يرمز إليه من معان مجردة غير محدودة تلف في رمزيتها الجماد و الإنسان ،ولقد اتحد الإنسان بالمكان،و صار الإنسان رمزا لحقيقة واحدة لها ديمومة التاريخ و صلابة الصخر،كما لو أن الصخر مكسو بلحم آدمي، و لا تبدو محققة إلا فيه

"[29]فتعدد الموضوعات المكانية و تنوعها حسب تجربة و معاناة كل شاعر ، جعل المكان الشعري يؤرخ لجميع جرائم الاستدمار الفرنسي ،من قتل و تعذيب و حرق و ترحيل ...و التي بقيتمن الذكريات الأليمة التي يحتفظ بها كل جزائري غيور عانى منها،و سيرويها جيل لجيل، و ليثبت أن الذات الجزائرية قوية العزيمة صلبة الإرادة قاهرة للمستدمر.

فالقرية التي أحرقت في ماي 1956 و صوّرها الشاعر سعد الله مبشرا بالغد الجميل و بالاستقلال ستبقى مع غيرها في ذاكرتنا، و شاهدة على بشاعة جرائم فرنسا في الجزائر حيث اتبعت سياسة الأرض المحروقة و المعتقلات الجماعية ، و الترحيل القسري .. و صبت جام غضبها على القرى المعزولة ،أو القواعد الخلفية للمجاهدين :

قريتي قد حرقوك

بخَّروك عودَ طيبْ

يفعمُ الأرضَ حياهْ

و يثيرُ الشعبَ في وجهِ الطّغاهْ

حرقوكِ ... بخروكِ

حين ضَجُّوا من بنيك

في الأدغالِ المانعةْ

قريتي لا تدمعي

فرصاصُ الحقدِ و الثأرِ معي

و الصباحُ الحرُّ ضاحِي المطلعِ .[30]

فحرق القرية لا يمنع الحياة ،و لا يمنع الحرية المنتظرة ،و لا يمحو الذات؛ فموت أهلها العزل هو ولادة جديدة متجددة ،و لو بعد حين ، دفع المكان الضريبة لعدم التمكن من المجاهدين و الأحرار .

فبقدر ما يحس الشاعر الجزائري بالضياع و الظلم و محاولة اقتلاع الجذور و استيلاب هويته،يتعزز ارتباطه بالمكان أكثر فهو يُحس من خلاله . بالرغم مما حدث له . بالانتماء ، بعيدا عن الذكر العشوائي،و محاكاة المكان فقط ، لأن التاريخ و حده لا يصنع النص، بل هو عنصر بنائي هام يدخل في التركيبة الكلية للنص.وانجذابنا نحو هذه النصوص الشعرية السابقة– أو غيرها من النصوص – ،كان نتيجة التركيبة العامة لها ، و القيم الجمالية و الإنسانية التي تحملها . بغض النظر عن الالتزام الدقيق بالقيم الجمالية و العناصر الفنية ، لأن الثورة لم تترك المجال للشعراء للعناية بالبناء العام للنص و بالعناصر الفنية .

و إذا كان المكان الجزائري ، باختلاف أنواعه،قد ذكر عند معظم الشعراء الجزائريين، فإن الجزائر كموطنو جغرافيا جامعة و تاريخ و وجود حضاري،ودولة لم يخل من ذكرها شعر شاعر ، قبل الثورة أو أثنائهاأو بعدها ، فهي المكان الجامع ،الذي يلتقي عنده الشعراء باختلاف رؤاهم و مشاربهم الفكرية و الفنية ، لأن " الوطن هو المكان الأول الذي يتجذر في الذات الإنسانية،هو البؤرة المركزية التي تستقطب تفاصيل الحياة الشاملة، و النواة الخفية التي تتمحور حولها التجربة الشعرية . [31]

ومهما ابتعد الشاعر الجزائري عن وطنه لسبب من الأسباب،فهو يحمله بداخله إلى الأبد، فالوطن هو الهوية و الذاكرة و الأرض و الانتماء ،الماضي والحاضر والمستقبل،هو كل شيء،و كل شاعر في الجزائر لهج بذكره ، في القرب أو البعد. فالشاعر مُحَّد اللقياني يحاور الوطن ، و يطلب منه اختباره إن شك في حبه له ،على المستوى الشعري ،و هو في الواقع جندي من جنود الوطن المفدى :

أنا أهوى و طني رغمَ العِدَا ، و بلادِي
كلُّ يوم كَلَفِي من حبّها في ازديادِ
***

صارَ جسمِي من تباريحِ الجوَى كالخلالِ
إن شككتِ في صحيح خبري فابتلينِي
حملِيْنِي ثقلَ أعباءِ الجوَى حمِّلينِي
إذْ به من بين عُشّاقِ العُلا تعرفينِي
أنا أهواكِ و مثلي في الهوى لا يبالي
فأنا سيفُك في يومِ الوَغَى و النزالِ . [32]

و يتخذ الوطن أشكالا شعرية عدة؛ فهو الحلم الجميل ، و هو الواقع المرير،و هو امرأة جميلة ساحرة تتصف بكل الصفات،عند الشاعر بلقاسم خمار البعيد عن الوطن في سوريا و المدافع عنها بالرغم مما يعانيه من بعد و قسوة و لهفة للمشاركة في الثورة:

هم يسألونِي عنها لأني مِنْ ذَويــــها
ماذا تراها وماذ ا تقولُ عنها و فيــها ؟
فقلتُ لا تسألونِي بل ارجعوني إليــها
قلبِي يراها و عيني فينُوس من خادميها

ما يخلقُ الله حسنًا إلا و فَاقَتْهُ تِيــها
السحرُ في مُقلتيْها و الشّهدُ من شَفَتَيْهَا
و شعرُها رعشاتٌ ظمأى على كَتِفَيْها
بهاؤُها فيضُ السحرِ طغى على مُعْجَبِيْهَا
لو أيُّ شيءٍ رآها لهامَ منها إليهــا
لا تسألوني و هاتوا إذَا وجدتْم شبيها[33]

فالجزائر عند الشاعر بلقاسم خمار ، إمرأة جميلة تتصف بكل الصفات الرائعة،لم يجد أحسن منها ،ولم يجد النموذج الذي يشبهه بالجزائر سوى امرأة جميلة ، و هو تشبيه بسيط لم يرق بالنص إلى أبعاد و دلالات كثيرة .و الجزائر هي كل مدينة من الشرق أو الغرب، عند الشاعر مفدي زكريا ، و لا عزة إلا باستقلال الجزائر ،و لا مجد لنا إلا بالوحدة الكبرى داخل الوطن،كمرحلة أولى ثم الوحدة مع بقية الدول العربية الأخرى في مرحلة قادمة، فالتحام المكان مع المكان،تحقيق للآمال و انتصار ليس بعده انتصار، و قد جمع الشاعر مفدي زكريا العديد من أحياء الجزائر و المدن الجزائرية في النص الواحد، ليبرز التلاحم و المصير المشترك والاعتزاز بالانتماء إليها، بالرغم من عدم التفاعل الوجداني معها و الاكتفاء بالسرد و الوصف الخارجي،و استرجاع الذكريات :

جزائرُ ..مهما باعد الخَطْبُ بيننا تُبَاكِرني النجوى، وتهفو بي الذكــرى
حنيني إلى" القصْباءِ"هاج مدامعِي و شوقي إلى" بِلْكُورَ" أفقدني الصَــبْرا
و في حي"بابِالوادِ"ماضي صبابتي تركتُ "ببابِ الوادِ" من كبدي شَطْــرا
و يا فتنة" الأبيارِ"و "السعدُ باسمٌ " ألمْ تُنْسِكَ الأبعادُ ،أيامَنا العَطْــرا؟
و في"القبةِالفيحاءِ"عشُّ خواطري.. تركتُ بها لما أحاطوا بنا و كْــرا
... بلادي، يمينًا بالذي شَرَعَ الفِدَا و بالجيشِ، في الساحاتِ ،يسترخِصُ العُمْرا
.سَنَثْأَرُ حتى يعلمَ الكونُ أنَّــنَا أَرَدْنَا . فَأَرْغمْنَا . باصرارنَاالدهْــرا[34]

و للجزائــر-كــوطن-عنــد الشــاعر مفــدي زكــريا مكانــة خاصــة تجســدت موضــوعيا و لغــويا في " إلياذة الجزائر " التي كتبها بعد استقلال الجزائر،حيث أسبغ عليها كل الصفاتو قد تكرر لفظ الجزائر في الإلياذة مائة و ثلاثا و أربعين (143) مرة إضافة إلى أماكنو مدن العاصمة (اثنتي عشرة 12مرة) و أماكن و مدن جزائرية(أكثر من ستين 60 مرة) و هذا التواتر كان " حسب أهمية الخطاب و مقاماته المختلفة . ذلك أن الشاعرحرص على أن يقدم

هذه المدن و الأماكن للمتلقي بحكاياهاو مقاماتها و ملابساتها الاجتماعية فضلا عن جانبها الوظيفي الذي تؤديه على نحو سائر الأسماء"[35]

و لقد أصر الشاعر مفدي زكريا على أن يجعل من الجزائر محور الإلياذة الثابت ،محاولة منه لإقناع المتلقي بأهمية هذا المكان، أرضا و جغرافيا و تاريخا ،و تجذره في الذات، لذلك جعلها الحقل الدلالي المهيمن على بنية النص ، من بدايته إلى نهايته ، فهي مطلع الإلياذة ،و وسطها و نهايتها ،لقد بدأ الإلياذة برسم لوحة متميزة للجزائر :

جزائرُ يا مطلعَ المعجــزات و يا حُجَّةَ اللهِ في الكائــات
ويا بسمةَ الربِّ في أرضِــه و يا وجهَهُ الضاحكَ القَسَمَات
و يا لوحةً في سجلِ الخلــو دِ تموجُ بها الصوَّرُ الحالمَات
و يا قصةً بثَّ فيها الوجــودُ معاني السموِّ بِرَوْعِ الحَياة
ويا صفحةً خطَّ فيها البــقا بنارٍ و نورٍ جهادَ الأُبَــاة
و يا للبطولةِ تغزو الــدُّنا و تُلْهِمُهَا القيمَ الخالِـدَات
و أسطورةً ردَّدَتها القــرونْ فهاجتْ بأعماقِنَا الذكرياتْ
و يا تربةً تاه فيها الــجلالُ فتاهتْ بها القممُ الشّامخات
و ألقى النهايةَ فيها الجمــالُ فَهِمْنَا بأسرارِها الفَاتِنــات
وأهوى على قدميها الزمانُ فأهوى على قدميْها الطغاة [36]

فهي مطلع المعجزات وحجة الله في أرضه ،و أسطورة رددتها القرون... و ذروة الوصف تجلت في البيت العاشر من المقطع الأول للإلياذة ،حيث سما بالجزائر إلى مرتبة عالية و جعلها محطة لتحطيم كل الأساطير و محطة لكسر جبروت كل الطغاة .و لم يكتف الشاعر مفدي زكريا بهذه الصفات المتعددة و المتتالية بل أضاف إليها الكثير من الصفات، في المقاطع اللاحقة ؛فهي بدعة الفاطر و روعة الصانع القادر وجنة وومضة الحب وإشراقة الوحي وثورة ،ووحدة وحكاية و عروس و جنان و حنان و سمو و سماح و معبد الحب .... و هي كلها صفات الجزائر التي ألهمته الإلياذة وأحبها وخلدها في شعره (الإلياذة و اللهب المقدس) و هبها فكره و عمره و مات وهو بعيد عنها و لم يطلب سوى الأمان له ولها:

بلادي بلادي الأمان الأمان أُغَنِي عُلاَكِ بأيّ لســان
جلالُكِ تَقْصُرُ عنه اللُغــى و يُعْجِزُنِي فيكِ سِحْرُ البيان
إليكِ صلاتي و أزكى سلامي بلادي بلادي الأمان الأمان [37]

و م يكن مفدي زكريا و حده الذي أحب الجزائر و تغنى بها في شعره ، بل شاركه في هذا الدرب كل شعراء الجزائر .فالشاعر صالح خرفي مثلا لا يختلف عن غيره من الشعراء في توظيفه للمكان،أثناء الثورة ،بل كان الاختلاف بعد الاستقلال، إذ لا نجد كثيرا من الشعراء اهتموا بمكان واحد كتبوا فيه قصائد عديدة مثلما نجده عند الشاعر صالح خرفي ، الذي جعل جزءا كبيرا من ديوانه " من أعماق الصحراء" في الحديث عن و لاية غرداية و قراها السبع .فـ" من أعماق الصحراء " عنوان يحيل القارئ إلى مدن صحراوية بعيدة أسست بعد سقوط الدولة الرستمية في تيهرت سنة 1296 هـ و انتقال أهلها إلى ورقلة ثم إلى غرداية بمختلف قراها السبع . و إتباعهم للمذهب الاباضي على خلاف باقي المدن الجزائرية التي تتبع المذهب المالكي.و إحالة العنوان تجلت في تلك المضامين و الاهتمام بالمكان ،لا كجغرافيا فقط ،و إنما كعنصر يمارس تأثيره على الشاعر ، فهو يعبر من خلال المكان عن رؤيته الحياتية و فلسفته في هذا الوجود .

و قد أسبغ الشاعر صالح خرفي على هذه القرى السبع التي تمثل ذاته و هويته المتجذرة في التاريخ والجغرافيا -(و ما يحمل العدد سبعة من دلالات دينية)،و هي:غرداية (مقر الولاية) ، مليكة ، بنورة، بني يزقن،العطف ، بريان ، القرارة (موطن الشاعر ومكان ولادته)،و التي تؤلف شبكة وادي ميزاب -صفات جعلتها أماكن متميزة عن مدن الجنوب الجزائري الأخرى(كما هي واقعا من خلال هندستها و النمط الاجتماعي السائد فيها...)، فالمغايرة حاصلة على الأقل من الناحية الطبيعية والجغرافية:

القرى السبعُ كالمجرةِ نـورٌ يتدانى و موقعٌ عزَّ بَـوْنَا
حفَّها اللهُ بالنخيلِ ظِـلالاً و نفوسٌ تَحُفْ بالدِّينِ صَـوْنَا
جُزُرُ الأمنِ في خِضَمِّ الفيافِي إنْ غَفَتْ عَيْنُهَا رعَى اللَّهُ عَـيْنَا
و هي تغفُو على بحيرةِ نفطٍ و تصافِي من خالصِ التِّبْرِ خِدْنَا
و من الغازِ لفحةٌ و ضيـاءٌ و من الماءِ ما يُزَخْرِفُ عَدْنَا
زَهِدتْ في الحياةِ غُدْوَةَ رَوْعٍ فَأَتَتْهَا الحَيَاةُ تَطْلُبُ أَمْـنَا [38]

والقرارة هي العقد الذي و ضعه الشاعر في عنقه من دون القرى الست ، لأنها موطن ولادته ، وطفولته و شبابه ، فهي صافية كالنبع ، نقية و سامية ، فيض من الحنان ، بل هي عنده ، دار خلد ، و أنت سم الدار كيفما شئت لأنها أسمى و أسنى :

...قُبْلَةُ العهدِ يا قرارةَ قلبِي أنتِ أدرَى بِـــهِ إذا الآهُ أنَّا
أنتِ أدْرَى بِعَبْرَةِ العينِ تُهْمِي كُلَّما الاسْمُ في المسامــعِ رَنَّا

جرسُ السّحر في حُرُوفِك يُذْكِي دَقَةَ القلبِ فَهْوَ يَعْزِفُ لَحْنَا
أنتِ عندِي طفولتي و شبابِي أُرْخِصُ العُمْرَ في هواكِ و أَفْنَى
أنتِ أَوْرَثْتِنِي نَقَاوَةَ صَــدْرٍ مِثْلَمَا النَّبْعُ صافيًا شفَّ لَــوْنَا
أنتِ عوَّدْتِنِي السُّمُوَّ بعيدًا أَسْتَشِفُ الأذى فَأُسْدِلُ جَفْــنَا[39]...

فالمكان – القرارة- قد مارس تأثيره على ذات الشاعر صالح خرفي و على نصه الشعري ، و ما تكرار الضمير المنفصل " أنْتِ" إلا صورة من صور هذا التأثير ، حيث عوض القرارة بالضمير ليجعلها كائنة و حاضرة متجلية أمامه عيانا يشير إليها دون سواها . ثم يتغلغل بالمكان الاستثنائي شيئا فشيئا صوب الداخل، حيث نجده ينسب إلى القرارة الفضل كلّه في جعله نقي الصدر، بريءالطفولة، صافي الدموع، سامي الروح،شفاف القلب.. والمكان بهذا المعنى يقترب كثيرا من دور الإحالة على الخبرة الشخصية واختزال الذات الساكنة فيه، و هو الدور الذي تمركزت حوله دراسة غاستون باشلار.

لكن الشاعر صالح خرفي لم يغفل القرى الست الباقية بدءا من غرداية إلى بريان ، و عاد إليها واصفا إياها ، مع ربط المدينة بالتاريخ ، و العلامات المميزة للمدينة ، أما الوصف الجغرافي للمدينة فكان عند حديثه عن مدينة بنورة ،و مدينة مليكة، الواقعة في مواجهة بنورة و وهي شبيهة بها في موقعها و حصانتها-و هي أصغر القرى السبع سكانا و عمرانا -.

وما جعل توظيف الشاعر صالح خرفي للمكان متميزا ، هو البعد عن الإلصاق الجغرافي للمكان ، و السرد التاريخي لأحداث المكان فقط، في معظم نصوصه الشعرية،و إن ارتكز على التاريخ و الجغرافيا فهو يحاول أن يستثمر كل ماله علاقة بالمكان في بناء نصه الشعري، وإن لم يكن الالتحام به في كل النصوص،فهذا راجع أن لكل نص ظروفه المحيطة، و العلائق التي تربطه به .

فالنص المكانيالذي يبرز الذات و يجليها يأتي نتيجة عوامل عدة ؛ سياسية ، تاريخية ، دينية ، نفسية... فالشاعر صالح خرفي تميز في الرؤيا و الطرح و التوظيف ، و برجوعنا إلى ديوانيه: " أطلس المعجزات " و " من أعماق الصحراء " يظهر لنا بجلاء تواتر موضوعة المكان في شعره . فقد بلغ تواتر المكان باختلافه ثلاثة مائة و ثلاثة و عشرين-323- مكانا،و بإضافة حقل المكان العام غير المحدد مثل : الغابات و السجون و السماء و البحر و القمر و القرى يبلغ العدد ثلاثة مائة و خمسا و أربعين-345-مكانا.و يأتي المكان الجزائري في المرتبة الأولى بـ مائتين و واحد و عشرين-221- ،و تحتل الجزائر الوطن المرتبة الأولى فيه ،كما احتلت مدينة القرارة المرتبة الأولى في تواتر المدن الجزائرية . فالجزائر هي موطن الشاعر صالح خرفي ، الذي حمل همه و دافع عنها في السراء و الضراء، و هي المكان الإيجابي بالنسبة له ، مثلما

هي مدينة القرارة ، و في المقابل فرنسا هي المكان السلبي أو المكان المضاد للشاعر و الواقف ضد تحقيق أحلامه و آمال شعبه .

خاتمة:

ولأن هاته المقالة لم تكن خاصة بشاعر جزائري واحد، فقد حاولنا فيها تناول مجموعة من الشعراء الجزائريين الذين كتبوا للجزائر، وأعلوا من الذات الجزائرية ،و ساهموا في الإعداد لثورتها و تهيئة النفوس. وعندما انطلقت، واكبوها بشعرهم في القرب و البعد، ولما انتصرت، بقيت تشغلهم و تلح في عالمهم الشعري. وليس غريبا أن يرتبط الشاعر الجزائري بالمكان الجزائري قبل الثورة وأثناءها،وبعدها أيضا ،لأنه متجذر، فيه يعيش في ظله أو يسعى لاحتوائه والقبض على سره وكنهه، عاش تجارب جميلة وقاسية معه،لكنه أحبه لأنه منه وهو منه ،و هو ذاته وحاضره ومستقبله.

الهوامش والإحالات:

[1] إبراهيم رماني : المدينة في الشعر العربي " الجزائر نموذجا 1925 . 1962 " . الهيئة العامة للكتاب , مصر , ط 01 , 1997 ,. ص 205

[2] صلاح فضل : تحولات الشعرية العربية . دار الآداب ، لبنان ، ط 01 ، 2002 ، ص 55.

[3] عمر بوقرورة : الاغتراب في الشعر الإسلامي المغاربي المعاصر . دكتوراه مخطوطة ، جامعة قسنطينة 1993 . 1994 ، ص 275 .

[4] نماذج من الشعر الجزائري المعاصر ج 01، منشورات مجلة آمال ، الـجزائر ، 1982 ، ص 63 /65

[5] مفدي زكريا : اللهب المقدس ..ش و ن ت،الجزائر، ط01، 1983. ص 264 /265 .

[6] إبراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي . ص193 .

[7] نماذج من الشعر الجزائري المعاصر ج01. ص 115/ 116.

[8] ديوان الربيع بوشامة.منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ط01، 1994، ص 144.

[9] نماذج من الشعر الجزائري المعاصر.ج01.ص37.

[10] مُحَمَّد الصالح باوية : أغنيات نضالية . ش و ن ت ، الجزائر ، ط 01 ، 1971 ، ص 89

[11] المصدر نفسه مُحَمَّد الصالح باوية : أغنيات نضالية .ص 89.

[12] الأخضر السائحي : همسات و صرخات . ش و ن ت، الجزائر،ط02، 1981.ص 72

[13] مفدي زكريا : اللهب المقدس . ص 33 . 34.

[14] مفدي زكريا : اللهب المقدس . ص 58 .

[15] بلغ تواتر ها في ديوانيه "أطلس المعجزات "و "من أعماق الصحراء" فقط ، 123 مرة .

[16] صالح خرفي : من أعماق الصحراء. دار الغرب الإسلامي، لبنان،ط01، 1991. ص 163 / 164 .

[17] نقلا عن كتاب عبد الله الركيبي : الشاعر جلواح من التمرد إلى الانتحار . م و ك ، الجزائر ، ط 01 ، 1986 ، ص 26/ 29 .

[18] إبراهيم رماني . المدينة في الشعر العربي ، ص 159.

[19] عز الدين إسماعيل : الشعر في إطار العصر الثوري . دار القلم، لبنان، ط 01 ، 1974 ، ص 80 .

[20] إبراهيم رماني : المدينة في الشعر العربي . ص 146 .

[21] أبو القاسم خمار : ظلال و أصداء . ش و ن ت ، الجزائر ، ط02 ،1982 ، ص 92 .

[22] مُحَمَّد الصالح باوية : أغنيات نضالية . ص 42.

[23] مُحَمَّد الصالح باويه: أغنيات نضالية . ص51 .

[24] المصدر نفسه مُحَمَّد الصالح باويه: أغنيات نضالية. ص 32 .

[25]صالح خرفي : أطلس المعجزات. ش و ن ت، الجزائر،ط02، 1982، ص 11.

صالح خرفي : أطلس المعجزات. ش و ن ت، الجزائر،ط02، 1982، .ص 121

[26]صالح خرفي : أطلس المعجزات. ش و ن ت، الجزائر،ط02، 1982، ص 11.

[27]صالح خرفي : أطلس المعجزات. ش و ن ت، الجزائر،ط02، 1982، .ص 121

[28] محمّد الشبوكي : الديوان .منشورات المتحف الوطني للمجاهد . الجزائر ، ط01 ، 1995 ، ص 36 .

[29]صالح خرفي : أطلس المعجزات ص180.

[30]عثمان حشلاف : الرمز و الدلالة في شعر المغرب العربي المعاصر . " فترة الإستقلال" منشورات الجاحظية، الجزائر، ط01، 2000.،ص 22.

[31]أبوالقاسم سعد الله: النصر للجزائر . منشورات مجلة آمال , ع 12 , 1984.ص71.

[32]إبراهيم رماني : المدينة في الشعر العربي . ص 205 .

[33]نماذج من الشعر الجزائري المعاصر ج01. ص 21 .

[34]أبو القاسم خمار : ظلال و أصداء. ص 66 .

[35]مفدي زكريا :اللهب المقدس .ص314.

[36]خليفة بوجادي : الثابت اللساني في إلياذة الجزائر . دار هومة، الجزائر، ط 01، 2001 ، ص 94

[37]مفدي زكريا : إلياذة الجزائر . م و ك ، الجزائر ، ط 02 ، 1987 ، ص 19 .

[38]مفدي زكريا : إلياذة الجزائر . ص 118.

[39]صالح خرفي : من أعماق الصحراء ص 42